للوحدانية المتميزة ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلاَّ كذبا﴾[1] جاء في ظلال القرآن[2] بهذه المناسبة القول: «ويسارع السياق هنا إلى عرض قولة الطاغية الكافرة، مجملاً مشاهد سعيه وحشره للسحرة وتفصيلاتها. فقد أدبر يسعى في الكيد والمحاولة، فحشر السحرة والجماهير، ثم انطلقت منه الكلمة الوقحة المتطاولة، المليئة بالغرور والجهالة: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾.

قالها الطاغية مخدوعاً بغفلة جماهيره، وإذعانها وانقيادها. فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها. وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطاناً. إنما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرها فيركب، وتمد له أعناقها فيجر. وتحني له رؤوسها فيستعلي. وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى.

والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة وخائفة من جهة أخرى. وهذا الخوف لا ينبعث إلاَّ من الوهم. فالطاغية، وهو فرد، لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف والملايين، لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعزتها وحريتها. وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة، ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئاً. وما يمكن أن يطغى فرد في أمة كريمة أبداً. وما يمكن أن يطغى فرد في أمة رشيدة أبداً. وما يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربها وتؤمن به وتأبى أن تتعبد لواحد من خلقه لا يملك لها ضراً ولا رشداً.

فأما فرعون فوجد في قومه من الغفلة ومن الذلة ومن خواء القلب من الإيمان، ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾. وما كان ليقولها أبداً لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة، تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شيء. وإن يسلبه الذباب شيئاً لا يستنقذ من الذباب شيئاً».

---

(١) سورة الكهف: ٥.

(٢) ص ٣٨١٥.

وحيث إنّ سنة الله تعالى قد اقتضت إذا ما أراد أن يأخذ الظالم أخذه أخذ عزيز مقتدر، فقد كان ذلك من نصيب فرعون، إذ أغرقه الله تعالى في الدنيا ويوم القيامة يحرقه، جزاء طغيانه، وبالذات، أكذوبتيه الكبريين. قال تعالى: **﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾**.

وحيث إنّ الأخذ هنا بمعنى الإهلاك، وإنّ النكال والتنكيل، بمعنى الانتقام كي يأخذ الآخرون العظة والاعتبار، فالسعيد من وعظ بغيره، لذلك جاء النكال، وهو مصدر ليس من لفظ الفعل أخذ وإنما من معناه، لأنه يضيف جديداً هو أن الأخذ كان انتقاماً كي يتعظ الآخرون الذي يسيرون في ذات الطريق الخاطىء الذي سار فيه فرعون من قبل. وقد هيأ لفظ النكال لأن تجيء الآية التالية منبهة إلى ضرورة أخذ العبرة، مع حصر القدرة على هذا الأخذ للعبرة في المؤمنين الذي عرفوا الله تعالى فامتلأت قلوبهم خشية له وخوفاً من عقابه ورجاءً في ثوابه. وهكذا يتبين أن السياق يتجه صعداً. إنَّ الآيات، من ناحية تبين المراحل مرتبة حسب تاريخ وقوعها. ومن ناحية أخرى، هي تختم بذكر العظة والاعتبار، وقد جرى ذلك في ذات التطور المعتاد. فإذا كان النكال قد أضاف إلى الأخذ في الآية جديداً، إذ بيّـن أن الأخذ انتقام الله تعالى من هذا الجبار، ويوشك أن يكون مصير كل الجبارين واحداً، فإن الآية التالية تشير إلى أن الذين يستفيدون في حقيقة الأمر من مثل هذا القصص هم المؤمنون حقاً، الذين عرفوا الله تعالى وامتلأت قلوبهم خشية له وخوفاً منه ورجاءً في ثوابه.

وحينما نتبين أن الآيات ختمت بالقول: **﴿لمن يخشى﴾** في حق المؤمنين الصادقين، ونتبين أن موسى عليه السلام كان حريصاً في دعوته لفرعون على أن يصل إلى هذا المستوى: **﴿وأهديك إلى ربك فتخشى﴾** ندرك شيئاً من إخلاص رسل الله تعالى في تبليغ الرسالة وأداء الأمانة.

إن رسل الله تعالى يعتبرون، لكل الدعاة إلى الله تعالى، المثل الأعلى في التضحية، وإخلاص النصيحة، ولين الجانب، ورقة القلب، ولطف الحديث، وحلاوة اللسان ،وعذوبة المنطق ، ورجاحة العقل، وسلامة الصدر، والصبر على الشدائد، وعدم اليأس من روح الله تعالى. وإذا كان ما قصه الله تعالى في هذه السورة الكريمة، عما صادفه موسى عليه السلام، يعتبر بالدرجة الأولى، تسلية للمصطفى ﷺ، فإنه وراء ذلك تسلية لكل الدعاة إلى الله تعالى في كل زمانٍ ومكان. وإذا كان الله عزّ وجلّ قد نصر جنده، بقيادة موسى عليه السلام على طاغية الأرض، فرعون وزبانيته الطغاة، فإن المصطفى ﷺ، والفئة القليلة المؤمنة كانت تستطيع أن تفهم أن هذا هو حظ الإسلام مستقبلاً، في صراعه مع الباطل في مكة، خاصة وأن كفارها أقل قوة من فرعون وجنده. ومع ذلك فقد كان ﷺ حريصاً كل الحرص على أن يؤمن قومه وألاَّ يكون مصيرهم شبيهاً بمصير فرعون وأمثاله. لذا كان دعاؤه ﷺ بشأن قومه يتعلق بطلب الله تعالى الهداية لهم. قال عز من قائل[1]: **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾**.

ولدينا ملاحظة بشأن ظاهرة تلاؤم الأصوات الخادمة للمعنى في الآيات. إنَّ الآية الأولى في القسم: **﴿هل أتاك حديث موسى﴾** تتكون من فكرتين أو قسمين متشابهين صوتياً، وكل قسم يتكون من كلمتين.

وإن الآية التالية: **﴿إذ ناداه ربه، بالواد المقدس طوى﴾** تتكون من فكرتين أو قسمين متشابهين صوتياً، وكل قسم يتكون من ثلاث كلمات.

وإنَّ الآية التالية: **﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾** تتكون من فكرتين أو قسمين يكادان يتفقان صوتياً، رغم تكون الأول من ثلاثة ألفاظ، والثاني من اثنين، لأن في الأول حرف جر ينبغي أن ينطق مع ما سبقه أو لحق به، ولأن في

---

(١) سورة التوبة: ١٢٨.

الثاني حرفين مطلقين هما الواو الناجمة عن إشباع ضمه «إنَّه» وألف «طعنا».

وإن الآية التالية: ﴿**فقل هل لك إلى أن تزكى**﴾ تتكون من فكرتين أو قسمين متشابهين صوتياً، وكل قسم يتكون من ثلاث كلمات.

وإنَّ الآية التالية: ﴿**وأهديك إلى ربك فتخشى**﴾ تتكوّن من فكرتين وتتألّف من أربعة ألفاظ.

وإنَّ الآية التالية التي تتكون من ثلاثة ألفاظ: ﴿**فأراه الآية الكبرى**﴾ تعتبر بمثابة القنطرة التي يتم التحول فوقها من آية تتكون من أربعة ألفاظ إلى آية أخرى تتكون من لفظتين وتعبر عن فكرتين. ﴿**فكذب وعصى**﴾.

وإنَّ الآية الكريمة التالية تنفرد بابتدائها بحرف العطف ثم: ﴿**ثم أدبر يسعى**﴾ التي تعبر عن فكرتين وتتكون من ثلاثة ألفاظ. وهي بهذا العدد من الألفاظ تحقق المزاوجة الصوتية مع الآية التي قامت بدور القنطرة. وتبدو هذه المزاوجة أكمل وأروع حينما نتبين أن الآية التالية ﴿**فحشر فنادى**﴾ تتكون من لفظتين وتعبر عن فكرتين على غرار الآية التالية للآية التي قامت بدور القنطرة ﴿**فكذب وعصى**﴾ وكأن المزاوجة سارت على هذا النحو ٣، ٢، ٣، ٢. قال تعالى: ﴿**فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى**﴾ وكأننا بصدد وهادٍ ونجاد صوتية مقدرة الارتفاع والانخفاض مضبوطتهما.

ولا ننسى أن حرف العطف «ثم» له فضل الدلالة على أن إدبار فرعون واجتهاده في الكيد لموسى تمَّ مع شيء من التراخي.

وهذه الآية الكريمة: ﴿**فقال أنا ربكم الأعلى**﴾ تتكون من أربعة ألفاظ، على غرار الآية السابقة للآية التي قامت بدور القنطرة.

فإذا نظرنا إلى الآيتين الأخيرتين تبين أن عدد الألفاظ يتجه صعداً. فإذا كانت الآية السابقة تتكون من أربعة ألفاظ، فإن الآيتين التاليتين، تتكون

الأولى من خمسة ألفاظ والثانية من ستة. قال تعالى: ﴿**فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى**﴾.

ولو أننا أنعمنا النظر في الآيات لاستطعنا أن ننتهي إلى أنها تعبر عن فكرتين. إنَّ قوله تعالى: ﴿**فأراه الآية الكبرى**﴾ تعبر عن فكرتين. الأولى إراءة الآية أو الآيات. والثانية الآية الكبرى أو الآيتان. وإنَّ قوله تعالى: ﴿**فقال أنا ربكم الأعلى**﴾ تعبر عن فكرتين، الأولى أنه رب ﴿**كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلاَّ كذباً**﴾ والثانية أنه الأعلى. وإنَّ قوله تعالى: ﴿**فأخذه الله نكال الآخرة والأولى**﴾ تعبر عن فكرتين، الأولى هي الإهلاك، والثانية كون الإهلاك نكال أكذوبتيه الكبريين. وإنَّ قوله تعالى: ﴿**إنَّ في ذلك لعبرة لمن يخشى**﴾ يعبر عن فكرتين. الأولى كون هذه القصة عبرة. والثانية أن الذين يستفيدون من هذه العبرة هم علماء المؤمنين الذين يخشون الله تعالى.

ولو أننا ألقينا نظرة عامة على عدد الألفاظ في آيات القسم لاتّضح أن كل آية ذات عدد من الألفاظ لها نظير أو نظائر ابتداء من الرقم اثنين إلى الرقم ستة. وحين نضع أعداد الألفاظ مرتبة وفق ترتيب الآيات، وموزعة في مجموعات، يبدو جمال التوزيع بالتناظر أو التدرج صعوداً أو نزولاً. وهذه هي الأعداد وفق ترتيب الآيات (٤، ٦، ٥، ٦، ٤) (٣، ٢، ٣، ٢) (٤، ٥، ٦) وحينما نرتل آيات القسم يبدو الجمال على حقيقته والتعاون الكامل بين المعاني والمباني. قال تعالى: ﴿**هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إنَّ في ذلك لعبرة لمن يخشى**﴾

القسم السادس

السّماء أشدّ خلقاً

القسم السادس:

قال تعالى: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء. بناها. رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعاً لكم ولأنعامكم﴾.

ما أكرم العزيز الرحيم. وأكثر نعمه، وأشد رأفته. فمع أن مشركي مكة هم من هم شدة طغيان، وكفران، بحيث إنَّهم يستحقون شيئاً مما نال فرعون الطاغية وجنده. ومع هوان هؤلاء المشركين وقلة حيلتهم، فإنَّ رحمة البر الرحيم تأبى إلاَّ أن تخاطب هؤلاء الكافرين بمختلف أوجه القول، علهم يرعوون إلى طريق الحق يوماً من الأيام. وإنَّ مشكلة المشكلات بشأن كفار مكة التصديق بالبعث بعد الموت. ظناً منهم أن ليس ثمة القوة القادرة على إحياء الموتى بعد أن غدوا رفاتاً. وبطبيعة الحال هم لا يسيرون وفق منطق الأشياء لأنهم يقرون أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقهم. وكان الأولى بمن كان هذا رأيه أن ينتهي إلى أن القادر على الإيجاد ابتداء قادر على الإيجاد عودة. ولما كانت السورة الكريمة المكية، التي تعنى بأسس العقيدة، في سبيل إعطاء هؤلاء المغرورين بقوتهم درساً قاسياً في العظة والاعتبار قد أشارت إلى إهلاك الله تعالى قمة من قمم الطغيان، فرعون الذي هو أشد قوة وأكثر جمعاً، فقد اقتضى الحديث، دليلاً على القدرة المطلقة، عن هذه القمة في الطغيان، الحديث عن قمة أخرى

في مجال الخلق تعتبر أعلى وأشد، ألا وهي السماوات والأرض، اللتان يعترف كفار مكة أن الله تعالى قد خلقهما. قال تعالى[1]: **﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾**.

إنَّ كفار مكة، الذين يعترفون أن الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي خلقهم، لا يغيب عنهم أو عن أكثرهم، أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلقهم، ومع ذلك هم لا يسيرون مع منطق الأشياء. لقد كان الأوْلى بهم أن ينتهوا إلى أن موجدهم من العدم قادر على إعادتهم إلى الحياة مرة أخرى، وأن القادر على خلق السماوات والأرض، وهي أكبر من خلق الناس، قادر على إعادة خلق هذه السماوات والأرض يوم القيامة، وعلى إعادة خلق جميع الخلائق. جاء في سورة يس[2] قوله تعالى: **﴿أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم. إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾**.

وتشاء إرادة البر الرحيم، أن تسير مع هؤلاء الكافرين. من الشيء الذي ينتهي إليه كل ذي عقل، والذي يعترف به البعض ويقر، وهو أن خلق السماوات والأرض أشد من خلقهم هم أنفسهم كي ينبههم إلى تفاصيل ما اعترفوا به جملة، علّ هذا التنبيه اللطيف يوقظ ضمائرهم النائمة، ويشحذ عقولهم التي ران عليها صدأ العادات والتقاليد، وإكبار ما قاله الآباء والأجداد، وتقديس ما ألفوا عليه آباءهم ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير. وهذه هي الآيات الكريمات اللاتي تتحدث عن قمة من قمم مخلوقات الله تعالى، والتي يعرف الكافرون أنها أكبر من خلق الناس، ولو فرض أن البعض يجهل ذلك، فإن ذكر العناصر الكبرى في السماوات والأرض، خليق بأن يحمل

---

(١) سورة لقمان: ٢٥.

(٢) آية: ٨١، ٨٢.

كل منصف على الانتهاء إلى الحقيقة التي قررتها سورة غافر[1] قال تعالى: **﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**. ويلاحظ أن الآيات الكريمة تبدأ بأعلى رأسي القمة، بالسماوات قال تعالى: **﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء؟ بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعاً لكم ولأنعامكم﴾**.

والسؤال في الآية الكريمة الأولى: **﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء؟﴾** يوجه بالدرجة الأولى إلى كفار مكة. ونستطيع أن نفهم أن الموجه إليهم السؤال، على افتراض أنهم جميعاً عقلاء، يمكن أن ينقسموا ابتداء إلى ثلاثة أقسام. القسم الأول: هم أولئك الذين يعرفون ابتداء أن خلق السماوات أكبر من خلق الناس. وجواب هؤلاء معروف، ويكون ذكر التفاصيل بعد ذلك من قبيل تعميق إحساسهم بقماءتهم إزاء السماوات، وإزاء الأرض بعد ذلك، وما فيهن. والقسم الثاني: هم أولئك الذين سبق وأن مر بأذهانهم خاطر من هذا النوع ولكن ليس في هيئة سؤال ينبغي أن يجاب عنه بدقة ووضوح. ويعتبر ذكر التفاصيل بعد ذلك بشأن هؤلاء مسعفاً لهم على الوصول إلى الجواب الصحيح. والقسم الثالث: هم أولئك الذين لم يخطر ببالهم خاطر كهذا من قريب أو بعيد، ويعتبر مثل هذا السؤال مفاجئاً لهم، وتعتبر التفاصيل بعد ذلك بمثابة التلطيف للمفاجأة وبمنزلة المساعدة على الوصول إلى الجواب الصحيح الذي يقوله كل عاقل بأن خلق السماوات أكبر من خلق الناس.

وينبغي أن نقرر ابتداء مجموعة من الحقائق. الأولى: هي أن التفاصيل بشأن السماوات وبشأن الأرض أيضاً، تضيف الجديد من المعلومات دائماً. الثانية: هي أن السؤال إذا كان صريحاً في حق السماء وغير موجود في حق

---

(١) آية: ٥٧.

الأرض فإنه مفهوم ضمناً. وإنما كان السكوت عنه لأنه لم يكن ثمة جواب بشأن السؤال: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء؟﴾ إنما كان بعد ذلك ذكر التفاصيل التي تنتهي بكل عاقل إلى الجواب الصحيح.

وحيث إنَّ الهدف الأكبر هو النتيجة التي يقررها ذكر التفاصيل بشأن السماوات والأرض، لذلك لم يكن ثمة السؤال الصريح بشأن الأرض لأنه مفهوم من السياق ضمناً. الثالثة هي أننا حينما ننظر إلى التفاصيل بشأن السماوات والأرض، من إحكام بناء السماء ورفع سمكها ومن جهة شمسها وقمرها. وبشأن دحو الأرض وإخراج الماء والنبات من أجل الإنسان والحيوان وإرساء الجبال، فإنا نتبين أن كل هذه التفاصيل تقتصر على ذكر الأمور التي يحس بوجودها كل إنسان بما في ذلك الكافر. ورغم أهميتها القصوى فإن هذا الإنسان، لإلفه لها واعتياده عليها، لم تعد تؤثر في وجدانه كما ينبغي. وإن لفت انتباه ذلك النوع من الناس، إلى هذه الآيات العظام التي ألفوا يجمع بين فائدتين. فهو من ناحية يبين طبيعة المرحلة المبكرة التي تمر بها الدعوة الإسلامية إذ تراعي طبيعة هذا الإنسان واستعداده، إنَّه بحاجة إلى أن ينبه إلى أهمية أبسط الأشياء في اعتقاده وأوضح الأمور بالنسبة له. وهو من ناحية أخرى يزيل الصدأ الذي ران على قلب ذلك الإنسان وفكره ووجدانه بحكم إلفه وعادته لهذه السماء بشمسها وقمرها. ولهذه الأرض بجبالها ومائها ومرعاها. وكأن التنبيه إلى أمثال هذه التفاصيل يعيدها جديدة إلى ذهن المسؤول المعروضة عليه التفاصيل، وفي ذلك شحذ للفكر، وإيقاظ للقلب، وتحريك للوجدان.

وفيما يتصل بالتفاصيل المتعلقة بالسماء، يتبين ما قلنا من أنها تعرض لأوضح هذه التفاصيل، بشأن كل من يلقى على السماء نظرة واحدة تتلوها نظرات. وإنما كانت هذه التفاصيل أوضحها لأنها أهمها! ورغم ذلك فإنها بسبب الإلف والعادة، لم تعد تؤثر في الناس كما ينبغي. وإن عرض التفاصيل في هذه الصورة البديعة، خليق بأن يعيدها جديدة في الأنظار والعقل

والوجدان. وتفسير ذلك أن كل إنسان ينظر إلى السماء فإنه ينبغي أن يرسل بصره تجاهها ليلاً أو نهاراً. وفي الليل يستحوذ البدر والنّجوم على الإنسان وفي النّهار ضياء الشمس واستواء السماء. هذه هي العناصر الرئيسية التي يصادفها كل ناظر إلى أعلى، إلى السماء. ورغم جلال خطر كل من هذه الأشياء وما ينبغي أن تدل عليه. إلاَّ إنّ الإلف والاعتياد، أفقدا الإنسان القدرة على أن يتجاوز النظر والاستمتاع إلى التأمل والتفكر. فكيف بينت الآيات الكريمات هذه الأشياء المعتادة؟ بعد أن طرحت أولى الآيات هذا السؤال: ﴿ **أأنتم أشد خلقاً أم السماء؟** ﴾ فنقلت السامع من دور النظر والاستمتاع، إلى دور التأمل والتدبر، عن طريق المقارنة بين ذاته التي يعرف عنها بالضرورة شيئاً ليس بالقليل وبين السماء فوقه التي يعرف عنها بالضرورة شيئاً ليس بالقليل أيضاً.

ولا تترك الآيات الإنسان تائهاً في مقارنته بين جسمه المحدود وبين السماوات غير المحدودة، إنما تحدد له جوانب النظر وتعين له زوايا التأمل. واللطيف في الأمر أنها تنبهه إلى الشيء الذي يعرف جيداً. ولكن السؤال الخطير الذي طرح، وجمال عرض التفاصيل، نقل الإنسان، كما قلنا، من طور الناظر بعينيه إلى الناظر ببصيرته. من طور السارح الذهن إلى الحاضره، ومن طور البليد الوجدان إلى طور اليقظ الوجدان المرهفه. إنَّ السؤال يردف ببيان أكبر ما يلحظ على السماء، عملية البنيان. وينبغي أن يكون للقول: «بناها» أكبر الأثر في نفوس العرب آنذاك، الذين غلب عليهم استعمال البيوت غير المبنية، وبالتالي قلت عملية البناء الثابت الوطيد الأركان.

ولو فرض أن الواحد منا دخل بناءً عالياً سقفه، فما هي الحركة الآلية التي يقوم بها؟ أن يرفع رأسه محاولاً إدراك سقف المكان ببصره إن كان ذا سقف، أو تتبع ارتفاع جدرانه، بقصد الوصول إلى أقصى مداه. إنَّ السؤال الذي تطرح الآية الكريمة: تجعل كل مسؤول بمثابة من أدخل هذا البناء المرتفع فقام بتلك الحركة الآلية. ولكن ما الذي يفاجأ به الناظر؟ إنه يفاجأ بأن ثمة

ارتفاعاً لا نهاية له، ودون حوائط أو عمد! لقد كان الإنسان يرى كل ذلك بعيني رأسه، ولكنه الآن يرى بعين بصيرته وبالتالي ينبغي أن يكون الأثر الآن غيره من ذي قبل.

لننظر كيف نقلت الآيات الإنسان إلى طور التأمل والتفكر. قال تعالى: **﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء؟ بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾**. ونود أن نقف عند رفع السمك. إنَّ لفظة السمك، التي تستعملُ دليلاً على النظر من أسفل الشيء إلى أعلاه بقصد معرفة قامته، تحدد الوضع الذي ينبغي أن يكون فيه رأس الإنسان المسؤول الذي ينبه إلى تفاصيل بناء السماء. ولتقريب ذلك نقول: لو قدر لأحدنا أن ينظر إلى ناطحة سحاب مثلاً وكان قريباً منها، فإن تحريكه رأسه باتجاه رأس البناء، كفيل بأن يسقط ما على الرأس من غطاء، إن كان ثمة غطاء. فكيف الحال بالإنسان الذي يقع دائماً تحت قبة السماء، والذي يلقي ببصره رأسياً في فضاء مداه خمسمائة عام تفصل بين كل سماء وسماء من السماوات السبع التي تظله! إنَّ الناظر يتحقق دائماً قوله تعالى: **﴿رفع سمكها فسواها﴾** بمعنى اتقان العمل وملاسته. كما يتحقق قوله تعالى[1]: **﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور. الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾**.

وحيث إنَّ هذا المسؤول لا يخرج وقت تنبيهه عن أن يكون في ليل أو نهار، تماماً كما لا يخرج نظره العادي للسماء عن أن يكون في ليل أو نهار، وفي كلتا الحالين يرى النجوم والقمر والشمس، فإن الآية الكريمة التالية تشير إلى آيتي الليل والنهار العظيمتين الدالتين على قدرته عزّ وجلّ. ولا تقف الإشارة

---

(١) سورة الملك ١ ـ ٤.

عند مجرد التنبيه إلى هاتين الآيتين، إنما تضيف إلى ذلك التنبيه إلى الحقيقة الأزلية من كون الليل قد خلق قبل النهار، وذلك بتقديم ما يخص الليل على ما يخص النهار، قال تعالى: ﴿**وأغطش ليها وأخرج ضحاها**﴾ إنه من الطبيعي أن يلحق الليل والنهار بالسماء لأنهما من متعلقاتها. ومعنى أغطش: أظلم. ومعنى أخرج: أبان وأظهر. ويفهم من القول: ﴿**وأغطش ليلها**﴾ أن النظرة إلى الليل راعت أحلك أجزائه، حينما تتألق النجوم ويغيب القمر. وهذه النظرة خادمة للغرض من إظهار الليل أسود حالكاً. ويفهم من القول: ﴿**وأخرج ضحاها**﴾ أن النظرة إلى النهار، راعت فترة الضحى، وهي أوضح فترات النهار التي يستطيع الإنسان أثناءها، وبخاصة العربي في جزيرة العرب المعروفة بميلها للحرارة، أن يتملى السماء خلالها. إنَّها الفترة التي تجمع بين اعتدال الجو وبين اتساع فضاء السماء أمام المتأمل. الذي ترك الشمس حديثة العهد بالطوع وراءه، فأرسلت أشعتها الكاشفة بما لا يحتاج لشيء من مزيد، وبما لا يتحقق في غير ذلك الوقت، فأتيح للإنسان أن يقلب وجهه في السماء، مرسلاً بصره في كل صوب بقصد أن يتملى سمك السماء. وإذا كنا عرفنا أن محاولة معرفة قامة الشيء تتم بالنظر من أسفل إلى أعلى فينبغي أن نقرر أن النظرة المعاكسة، أي من أعلى الشيء إلى قاعه، هي التي تبين عمق الشيء. وإنَّ هاتين النظرتين المتقابلتين خادمتان للآية الكريمة إذ تبين الوضع القريب من الأفقي الذي سيكون فيه وجه الشخص المسؤول في الآية الكريمة. قال تعالى: ﴿**أأنتم أشد خلقاً أم السماء؟ بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها**﴾.

وهذه هي الآيات الكريمة التي تتعلق برأس القمة الثاني أعني الأرض. قال تعالى: ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعاً لكم ولأنعامكم**﴾.

وأول ما نود الوقوف عنده، هو ظاهرة التلاؤم الصوتي بين الآيات التي تتحدث عن رأسي القمة، السماوات والأرض. والذي يلاحظ للوهلة الأولى

هو أن بين جانبي الحديث عن رأسي القمة تشابهاً كبيراً. وتفسير ذلك أنه جاء بين يدي الحديث عن السماء القول: ﴿**أأنتم أشد خلقاً أم السماء؟**﴾ وجاء بين يدي الحديث عن الأرض القول: ﴿**والأرض بعد ذلك**﴾ وأكملت الآية الأولى عن السماء بالقول: ﴿**بناها**﴾ والآية الأولى عن الأرض بالقول: ﴿**دحاها**﴾ وجاءت بعد ذلك آيتان عن السماء ﴿**رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها**﴾ بينما جاء عن الأرض ثلاث آيات: ﴿**أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعاً لكم ولأنعامكم**﴾ وليس بخافٍ أن الآية الثالثة: ﴿**متاعاً لكم ولأنعامكم**﴾ تسير وفق الآية الأولى ﴿**أخرج منها ماءها ومرعاها**﴾ إن الماء متاع للإنسان بالدرجة الأولى وإن المرعى متاع للحيوان بالدرجة الأولى كذلك. كما أنه ليس بخافٍ أن الآية الثانية بينهما تتحدث عن علامة بارزة للأرض ما كان يصح أن تتجاوز. مما سبق يتضح أن كلاً من المبنى والمعنى قد أخذ حظه في الآيات الكريمة. ولنا بإذن الله تعالى عودة قريبة مقارنة بين آيات الشقين من زاويتي المعاني والمباني.

وأول ما يلاحظ بشأن أولى الآيات: ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها**﴾ القول «بعد ذلك» إشارة إلى أن دحو الأرض، بمعنى بسطها، كان بعد خلق السماء. ونحب أن ننبه إلى أن الآية الكريمة هنا لا تتحدث عن خلق الأرض إنما عن بسطها كي تكون صالحة للناس في الدرجة الأولى. جاء عن ابن عباس القول[1]: إنَّ الله تعالى «خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات، ثم دحا الأرض بعد ذلك. فذلك قوله: والأرض بعد ذلك دحاها». «والمعروف من معنى بعد أنه خلاف معنى قبل»[2]. جاء في سورة فصلت الإشارة إلى أن خلق الأرض قبل السماء، قال تعالى[3]: ﴿**قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له**

(١) تفسير الطبري ٣٠/٢٩.
(٢) تفسير الطبري ٣٠/٣٠.
(٣) الآيات: ٩ ـ ١٢.

أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها. وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا. ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

وحيث إنَّ دحو الأرض إنما كان بالدرجة الأولى من أجل الإنسان الذي يحتاج للماء والغذاء والكساء وما إلى ذلك. لذا جاءت الإشارة إلى الماء والمرعى بعد ذلك مباشرة. قال تعالى: **﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾** ونستطيع أن نفهم أن إخراج الماء إنما كان بعد دحو الأرض، لأن الدحو إنما كان من أجل الإنسان أساساً ولا يمكن أن يكون الماء مفيداً للإنسان الذي من أجله أخرج، إلَّا إذا كانت الأرض مبسوطة مقدرة الانحدار مضبوطته، كي يتسنى للإنسان أن يستفيد من الماء النابع من الأرض الهاطل من السماء. ولو كانت الأرض عنيفة الانحدار، على حالها قبل دحوها، وأخرج الماء، لما كان ذلك مفيداً للإنسان. جاء في سورة الفرقان[1]: التنبيه إلى الحركة المقدرة المضبوطة لكل من الماء الملح والعذب، فوق سطح الأرض الواضح انحداره، المضبوط في حق الماء العذب بخاصة. قال تعالى: **﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجورا﴾**.

وحيث إنَّه عز وجلّ، قد جعل من الماء كل شيء حي، وسخَّر الأنعام من أجل الإنسان، لذا جاءت الإشارة إلى ما ترعاه الأنعام، لأن فائدة كل ذلك تعود إلى الإنسان في الدرجة الأولى. ولا يخفى الترابط المعنوي الذي سبق أن نبهنا إليه، بين الآيتين الكريمتين **﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾** إنَّ هذا الترابط المعنوي غاية في الأهمية. وها نحن أولاء نعود

---

(١) الآية: ٥٣.

حسب وعدنا، إلى النظر لآيات الشقين من زاويتي المباني والمعاني، والتعاون الكامل بينهما.

وإن أول ما نود توضيحه، هو أن نظرتنا ستكون منطلقة من تصريح آيات سورة فصلت، السابقة الذكر، بأن خلق السموات كان بعد خلق الأرض، ومن تصريح سورة النازعات بأن دحو الأرض كان بعد خلق السماوات. ويرتبط بهذه النظرة عدد من المسائل المتعلقة بالمعاني والمباني ويمكن أن تذكر على النحو التالي:

١ ـ لاحظنا من قبل أن بين الآية الأولى بشأن السماء: ﴿**أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها**﴾ وبين الآية الأولى بشأن الأرض: ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها**﴾ تشابهاً في النظم.

٢ ـ إذا تحولنا إلى الآية التالية بشأن كل من السماء والأرض، تبينا أن كلاً منهما لا تبدأ بحرف عطف. جاء بشأن السماء القول: ﴿**رفع سمكها فسواها**﴾ وجاء بشأن الأرض القول: ﴿**أخرج منها ماءها ومرعاها**﴾ وإذا أنعمنا النظر في الآيتين الكريمتين تبينا بسبب عدم وجود حرف العطف تلاحماً بين كل من الآيتين والآية السابقة مما نجم عنه كون الآية الثانية بشأن السماء، بمثابة التبيين لبناء السماء: ﴿**أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها**﴾ وكون الآية الثانية بشأن الأرض، بمثابة التعليل لدحو الأرض، ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها**﴾.

فإذا تحولنا إلى الآية التالية بشأن السماء: ﴿**وأغطش ليلها وأخرج ضحاها**﴾ فإنا نتساءل: هل عملية إغطاش الليل وعملية إخراج الضحى من مستلزمات عملية بناء السماء كرفع السماء، وتسويتها؟ والجواب بالنفي، بطبيعة الحال، لأن كلاً من الإغطاش والإخراج عمل لاحق لعملية البناء منفصل عنها وغير متصل بها، خاصة وقد عرفنا أن الليل والنهار تبع. وإنما جازت نسبة

إغطاش الليل وإخراج الضحى إلى السماء لأنهما مرتبطان بالشمس العالية، ومعروف أن العرب تطلق على كل ما علا الإنسان لفظة السماء، بما في ذلك المطر مثلاً، لأنه نازل من أعلى. وحيث إنَّ كلاً من الضياء والظلمة، هما وليدا الشمس العالية، لذا كان ارتباط الشمس ومتعلقاتها من الضياء والظلام، بالسماء أولاً ثم بالأرض، وقد جاءت الآية الكريمة ﴿**وأغطش ليلها وأخرج ضحاها**﴾ منبهة إلى كل ذلك.

في ضوء هذا التبيين نحن نتساءل عن حرف العطف «الواو» الذي ابتدات به الآية الكريمة ﴿**وأغطش ليلها وأخرج ضحاها**﴾ هل له القدرة على الإيحاء بالزمن الذي تمت فيه هاتان العمليتان؟ حيث إنَّا فهمنا من السياق أن هاتين العمليتين ليستا جزءً لا يتجزأ من عملية رفع سمك السماء وتسويتها المبينة لعملية البناء. وحيث إنَّ طبيعة الواو كما يقول علماء النحو، غير قابلة في الأساس لأن تدل على شيء من الترتيب الزمني بعكس الفاء مثلاً التي تدل على الترتيب والتعقيب وبعكس ثم التي تدل على الترتيب مع التراخي، فإن منتهى ما يمكن قوله بشأن الواو إنَّها لا تتجاوز دورها الطبيعي وبالتالي لا تستطيع أن توحي بأي شيء في مجال الترتيب الزمني ولا العملي أيضاً. إلَّا أن الاتجاه الواحد في القرآن الكريم، حيث يقدم الليل ويؤخر النهار، أوحى بأن النهار طارىء، ومن ذلك هذه الآية الكريمة. يضاف إلى ذلك أن الآية الثانية بشأن السماء جاءت فيها الفاء الدالة على الترتيب مع التعقيب ﴿**رفع سمكها فسواها**﴾ ثم جاءت الواو بعد ذلك ﴿**وأغطش ليلها وأخرج ضحاها**﴾ وبالتالي يمكن القول: إنّ الفهم بأن إغطاش الليل وإخراج الضحى إنما كانا مكملين لعملية بناء السماء وتاليين في الترتيب العملي لأن طبيعة العمل تقتضي أن يفهم على هذا النحو وليس لحرف العطف الواو من عمل يتجاوز عمله الطبيعي من كونه في الأصل لا يدل على شيء من الترتيب الزمني الدقيق.

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة الثالثة بشأن الأرض، تبينا أنها مبتدئة بالواو

على غرار نظيرتها المتعلقة بالسماء قال تعالى: ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعاً لكم ولأنعامكم**﴾ وحيث إنَّا على علم بالدور الطبيعي لحرف الواو، وحيث إنَّ الآية الرابعة ﴿**متاعاً لكم ولأنعامكم**﴾ وثيقة الصلة بالآية الثانية ﴿**أخرج منها ماءها ومرعاها**﴾ فالماء متاع للإنسان بالدرجة الأولى والمرعى متاع للأنعام بالدرجة الأولى أيضاً، لذا يقال بشأن الواو هنا ما قيل بشأنها هنالك، ويقال بشأن الآية الكريمة ﴿**والجبال أرساها**﴾ إنَّها تحدثت عن إرساء الجبال لأنها من أهم معالم الأرض، ولما كان الحديث هنا عن أهم معالم الأرض، لذا استلزم ذلك الحديث عن عملية إرساء الجبال، وإن كانت سابقة لعملية دحو الأرض، وإن كانت ليست امتداداً لتعليل عملية الدحو.

ويمكن أن نوجز القول بشأن هذه الآيات من جهة التعاون بين المعاني والمباني فيما يلي:

١ ـ بين الآيتين الأوليين في القسمين تشابه في البناء والمعنى.

٢ ـ الحديث عن السماء بعد ذلك جاء في آيتين مرتبطتين بتبيين عملية البناء ومتعلقاتها. والحديث عن الأرض بعد ذلك جاء في ثلاث آيات: من هذه الآيات الثلاث آيتان هما الثانية والرابعة، على غرار آيتي السماء، مرتبطتان بتعليل عملية دحو الأرض ومتعلقاتها. ولما كانت عملية إرساء الجبل الراسية، يرتبط بها في عين كل راء ما يقابلها من سهول مدحوة وأودية وصحار وما إلى ذلك، فقد اقتضى المعنى هذه المرة أن يتم الحديث عن هذا الشيء المقابل والمعلم البارز للأرض، أعني الجبال. ولما كان الحديث عن الجبال لخدمة ذلك الهدف السامي، فكانت الإشارة إلى الجبال من زاوية كونها للأرض بمثابة الأوتاد. وإن مراعاة الآية لهذا الهدف، قوة إضافية للسبب في ذكر الجبال لأن الأرض المدحوة لا تتحقق الفائدة منها دون الجبال. ويمكن القول بالتالي إن الحديث عن الجبال قد اقتضاه المعنى. وإذا

نظرنا وراء ذلك مقارنين صوتياً ومعنوياً بين ما يخص السماء وما يخص الأرض أمكن القول إنه إذا كانت عملية بناء السماء أردفت بآيتين بمثابة التبيين فإن شيئاً قريباً من هذا يقال بشأن عملية الأرض فقد أردفت، بقصد التعليل، بآيتين كذلك هما الثانية والرابعة. أما الثالثة بينهما فقد اقتضاها المعنى كما بينا.

٣ ـ تتفق الفواصل في كونها جاءت في نغمات متشابهة، باستثناء الآية الأخيرة التي أشعرت بأن الكلام ربما تحول وجهة أخرى. وذلك هو الذي حصل فعلاً. وقد جاءت الكلمات المتماثلة تماماً، بناها. ضحاها. دحاها. في الآيات الأولى والثالثة والرابعة. وجاءت فسواها. ومرعاها. أرساها. في الآيات الثانية والخامسة والسادسة.

٤ ـ إذا كان بين الآيتين الثالثة والرابعة توافق في نغمة الفاصلة، فإن هذا التوافق يمتد كي يشمل القولين ﴿**ليلها وأخرج ضحاها**﴾ ﴿**أرض بعد ذلك دحاها**﴾.

٥ ـ إذا كان بين الآيتين الثانية والسادسة توافق في نغمة الفاصلة، فإن بين الآية السادسة كلها ﴿**والجبال أرساها**﴾ وبين هذا القول في الآية الثانية توافقاً تاماً ﴿**سمكها فسواها**﴾.

٦ ـ إذا كانت النغمة الصوتية، في فاصلة الآية الأخيرة «ولأنعامكم» متميزة، إشعاراً بتحول الكلام وجهة أخرى، فإن بين كل ما تبقى من كلام، وبين صدر أولى الآيات توافقاً صوتياً كاملاً. فهذا القول في الآية السابعة ﴿متاعاً لكم و﴾ يوافق هذا القول في الآية الأولى ﴿أأنتم أشد﴾ هذا إلى أن الآية الكريمة ذاتها ﴿**متاعاً لكم ولأنعامكم**﴾ تنقسم قسمين متجانسين صوتياً ومرتبطين معنوياً بهذه الآية ﴿**أخرج منها ماءها ومرعاها**﴾ على نحو ما بيّنا.

القسم السابع

جهنّم مأوى الطّاغين والجنّة مأوى الطّائعين

القسم السابع:

قال تعالى: ﴿**فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه. ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى**﴾.

نود أن نلفت الانتباه ابتداءً إلى الشبه الصوتي، بين هذا القسم السابع وبين القسم الخامس. وذلك فيما يلي:

١ ـ الفاصلة هي الألف المقصورة في القسمين.

٢ ـ النغمة متشابهة في القسمين، وبخاصة أن المقاطع المتوسطة، التي يتكون الواحد منها من أول متحرك يليه ساكن، مرتفعة العدد. يضاف إلى ذلك أن حروف المد لها كبير دور في تكوين المقاطع المتوسطة. فالآية الأولى مثلاً ﴿**فإذا جاءت الطامة الكبرى**﴾ تتكون من أحد عشر مقطعاً، منها ستة متوسطة. والعجيب في الأمر أن لفظة «الطامة» في الآية الكريمة يأتي فيها، لاجتماع حرف مد مع حرف مشدد يليه، خلافاً للعادة، مقطع صوتي طويل يتكون من ثلاثة أحرف هي الطاء الثانية المتحركة والألف الممدودة والميم الساكنة من لفظة الطامة.

قال تعالى: ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾.

وهذا رسمها بالحركة والسّكون - - -ه- ه- - ه - ه ه - ه - - ه - ه-ه.

وهذا رسمها بالمقاطع - -ه ه - ه ٩ - ههه.

إنَّ مجيء مقطع طويل داخل كلام موسيقي يعتبر عجيبة من العجائب تحملنا على إدخال تعديل على القول المعتاد الذي يردّده العلماء من أن المقطع الطويل لا يجيء إلاَّ في نهاية كلام يسكت عنده. وإنّ مجيء هذا المقطع الطويل في الآية الكريمة معناه أن الصوت ينبغي أن يمتد طويلاً في حق الألف الممدودة، وأن ينزل انقضاضاً على الميم المشددة في لفظة الطامَّة. فإذا عرفنا أن الطامة تعني الداهية التي تطغى على كل الدواهي، استطعنا أن نتبين التعاون الكامل بين المعنى والمبنى كما يقولون.

وحيث إنّنا أشرنا إلى أن ثمة وجه شبه من الوجهة الصوتية بين هذا القسم السابع وبين القسم الخامس، وهما قسمان يصح أن يقال عنهما إنّهما متناظران، فإن ثمة وجه شبه آخر بالتناظر أيضاً، بين آيات القسمين الثامن والسادس. وسنتبين إن شاء الله تعالى ذلك قريباً.

على أن ثمة ملاحظة أخرى صوتية بشأن القسم السابع الذي نحن بصدده وهي أنه إذا كان هذا القسم يتكون من ثماني آيات، فإن إحدى هذه الآيات: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾ تتكون، كما هو واضح، من وحدتين صوتيتين. وبذلك يصح القول إذن إننا في هذا القسم بصدد تسع وحدات صوتية، إذا تأملناها تبينا أنها موزعة بالتساوي بين ثلاثة أجزاء. كل جزء يتكون من ثلاث وحدات متجانسة صوتياً.

هذا هو الجزء الأول ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى﴾.

وهذا هو الجزء الثاني: ﴿**فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى**﴾.

وهذا هو الجزء الثالث: ﴿**وأما من خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى**﴾.

والآن مع الجزء الأول، قال تعالى: ﴿**فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى**﴾. ويلاحظ للوهلة الأولى، أن الحديث يتمشى مع طبيعة المعنيين بالحديث، وهم كفار مكة بالدرجة الأولى، لذا كانت النظرة من زاوية الكافرين غالباً. فعلى الرغم من أن الأحداث تشمل كل الناس، إلاَّ أن الأسلوب عنيف، خاصة وأن الآية الثالثة تنص على بروز الجحيم لمن يرى. ومع أن كل الناس يرون الجحيم، على حد قوله تعالى[1]: ﴿**وإن منكم إلا واردها، كان على ربك حتماً مقضياً**﴾ فإن الجحيم إنما تبرز بالدرجة الأولى للغاوين، على حد قوله تعالى[2]: ﴿**وبرزت الجحيم للغاوين**﴾. والذي قوى هذه النظرة، أن الجزء التالي يتحدث عن هؤلاء الكافرين الطغاة ومصيرهم إلى الجحيم التي جاءت بصريح العبارة. ولا ننسى أننا بصدد سورة من المكي من القرآن الذي هذا هو طابعه الغالب. فما معنى الطامة الكبرى؟ إنَّها الصيحة الثانية التي يبعث إثْرها الخلائق، ويتذكر كل إنسان ما سعى في حياته الدنيا، وتبرز جهنم بشررها ولهيبها لكل من يرى. والطامة من قولهم لكل ما كثر وعلا حتى غلب لقد طم[3] وقولهم: جاء السيل فطم كل شيء أي علاه. ومن ثم قيل: فوق كل شيء طامة. ومنه سميت القيامة طامة[4]. وفي حديث أبي بكر والنسابة: «وما من طامة إلاَّ وفوقها

---

(١) سورة مريم: ٧١.

(٢) سورة الشعراء: ٩١.

(٣) اللسان «طمم».

(٤) اللسان «طمم».

طامّة، أي ما من أمرٍ عظيم إلاّ وفوقه أعظم منه، وما من داهيةٍ إلاّ وفوقها داهية»[1] فإذا وصفت القيامة بأنها الكبرى، التي ليس أكبر منها شيء فقيل: «فإذا جاءت الطامة الكبرى» تبين أن هذه الصفة أعطت ذلك اليوم ما يستحق من وصف، إذ ليس وراء خطر ذلك اليوم خطر، ومن نجا فقد فاز، ومن أخفق فقد هلك.

والآية الكريمة الثانية: ﴿**يوم يتذكر الإنسان ما سعى**﴾ تقرر الحقيقة القائمة من كون كل الناس، وخاصة الكافرين، يذكرون موقفهم السيء جيداً من الدعوة إلى الله تعالى. ولو فرض أن ثمة خطأ في تذكر بعض التفاصيل، فإن كتاب الأعمال الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها كفيل بأن يذكر كل إنسان بما عمل. قال تعالى في سورة الإسراء[2]: ﴿**وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا**﴾.

ولعلنا تبينا أن جملة «برزت» بمعنى أظهرت، في قوله تعالى: ﴿**وبرزت الجحيم لمن يرى**﴾ قوية بجرسها القوي! وهي بهذا تتمشى مع الأجواء المكفهرة التي تصبغ أكثر أجزاء سماء السورة الكريمة. يضاف إلى ذلك أنها خير مهيء للقول بعدها لمن يرى لأن معنى القول «برزت» أخرجت إلى البراز. والبراز، بالفتح، المكان الفضاء من الأرض البعيد الواسع. والموضع الذي ليس به خمر (بفتح الميم) من شجر ولا غيره[3] فكأن الجحيم وضعت في مكان مكشوف من جميع النواحي، وتسنى بذلك أن يبصرها على حقيقتها كل من يرى بدون استثناء.

وإذا كان كل الناس سيعبرون الصّراط الممدود في جهنم، فإنّ رحمة الله تعالى ملازمة للمؤمنين دائماً، وإنّ سخطه ملازم للمجرمين أبداً. قال تعالى[4]:

---

(١) اللسان «طمم».

(٢) آية، ١٣، ١٤.

(٣) اللسان «برز».

(٤) سورة مريم: ٧١، ٧٢.

﴿وإن منكم إلاَّ واردها كان على ربك حتماً مقضياً. ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾.

والجزء الثاني، المتضمن جواب الشرط، يشير إلى مصير هؤلاء المجرمين وفق أعمالهم في الحياة الدنيا. قال تعالى: ﴿**فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى**﴾.

ولا يخفى أن هذا القول ينطبق على فرعون وملئه، وعلى كفار مكة إن لم يتداركوا الأمر قبل فوات الأوان. والمأوى: المصير. يقول الزمخشري[٣]: «فأما: جواب فإذا. أي فإذا جاءت الطامة، فإن الأمر كذلك. والمعنى فإن الجحيم مأواه. كما تقول للرجل: غض الطرف! تريد طرفك. وليس الألف واللام بدلاً من الإضافة. ولكن لما علم أن الطاغي هو صاحب المأوى، وأنه لا يغض الرجل طرف غيره، تركت الإضافة. ودخول حرف التعريف في المأوى والطرف للتعريف، لأنهما معروفان».

وهذا الجزء يخص المؤمنين المتقين، قال تعالى: ﴿**وأما من خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى**﴾.

ومعنى القول: مقام ربه، قيامه بين يديه ووقوفه أمامه يوم القيامة. ويطلق الهوى غالباً على كل ما ليس بمحمود. والمراد الهوى المردى باتباع الشهوات.

---

(٣) الكشاف ٣/٣١١.

القسم الثامن
يسألونك عن السّاعة

القسم الثامن:

قال تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاَّ عشية أو ضحاها﴾.

على الرغم من أن كفار مكة لم يكونوا في مستوى من يفهم قضية البعث على حقيقتها، فقد كانوا لأسباب شتى، في مقدمتها الاستهزاء، يلحون في السؤال عن موعد قيام الساعة. وحيث إنَّ سؤال أمثال هؤلاء، إن جدا وإن هزلا، عن ذلك الموعد، لا فائدة منه مطلقاً، فهو في أحسن الفروض، كسؤال الطالب الكسول غير المبالي عن موعد الامتحان، دون أن يعد شيئاً من العدة لذلك اليوم. لا، إن موقفَ هؤلاء الكفار أسوأ من ذلك، لأن الطالب الكسول، على أقل تقدير، يؤمن بأن هناك امتحاناً، نجاحاً وفشلاً. أما كفار مكة، فقد كانوا يسألون عن شيء غير مؤمنين بوجوده أساساً. وينبغي أن يكون سؤالهم بدافع الاستهزاء، بأكثر من دافع الرغبة في إشباع فضولهم مثلاً. وكأن سؤال القوم المتكرر عن وقت قيام الساعة، رد فعل لإلحاح القرآن الكريم في تقرير حقيقة البعث بعد الموت. ولما كانت الفائدة معدومة من السؤال عن الأمر الخطير الذي لا يؤمنون بوجوده، وبالتالي هم لم يعدوا له العدة، ولما كان المسؤول عن ذلك اليوم، وهو المصطفى ﷺ، ليس بأعلم بذلك اليوم من

السائلين، جداً أو هزلاً، لذلك فإن القرآن الكريم، يقف بالسائلين، وخاصة الكافرين، عند الحدود التي لا ينبغي لهم أن يتجاوزوها، ولن يستطيعوا أن يتجاوزوها ولو حرصوا. إنه يقرر بصريح العبارة، أن العلم بوقت قيام الساعة عند الله تعالى وحده لا شريك له. وبالتالي فإن السؤال لا مكان له أصلاً. خاصة وأنه ليس ثمة فائدة من سؤال كهذا لا جواب عليه. بل إنَّه ليست ثمة فائدة من الجواب، فيما لو فرض أن كان جواب، لأن المهم هو الإيمان بذلك اليوم والاستعداد له ويمكن أن يلاحظ التدرج حيث الأعلى من البشر العاديين إلى الرسول الكريم إلى الذات العلية ﴿**يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها**﴾.

وحينما يحين ذلك اليوم المهول، يوقن الناس لصعوبته وشدته أن مكثهم في الحياة الدنيا، بالقياس لطول ذلك اليوم الصعب الشديد في حق الكافرين خاصة، بمثابة صدر نهار واحد من أيام الدنيا أو عجزه، عشية أو ضحاها.

إنَّ الآية الكريمة الأولى: ﴿**يسألونك عن الساعة أيان مرساها**﴾؟ تشير إلى سؤال هؤلاء الكافرين عن موعد قيام الساعة. «وأيان: معناه أي حين، وهو سؤال عن زمان، مثل متى»[1] وهو يدل على البعد. إن هذه الأداة مناسبة من الوجهة الصوتية للسياق، لاضطرار الناطق بها أن يمدها لاشتمالها على حرف المد، وكأنها تعكس شيئاً مما في أنفس هؤلاء الكافرين المستبعدين يوم القيامة المنكرين وجوده. وما معنى «مرساها» أصلاً؟ قال الفراء[2]: «إن قال القائل: إنما الإرساء للسفينة والجبال الراسية وما أشبههن، فكيف وصف الساعة بالإرساء؟ قلت: هي بمنزلة السفينة إذا كانت جارية فرست. ورسوها قيامها. قال: وليس قيامها كقيام القائم إنما هي كقولك: قد قام العدل وقام الحق أي ظهر وثبت».

---

(١) اللسان «أين».

(٢) تفسير الطبري ٣٠/٣١.

وما ردّ القرآن الكريم على إلحاح الكافرين في سؤالهم؟ جاء الرد في هيئة مخاطبة الرسول الكريم. قال تعالى: ﴿**فيم أنت من ذكراها**﴾. والذكرى بمعنى الذكر. والمعنى: في أي شيء أنت أيها الرسول الكريم من علم عن الساعة حتى تذكر لهم وقتها وتعين موعدها؟ إنَّك أيها الرسول الكريم لست على شيء من العلم بشأن الساعة إنَّما العلم كله عند الله تعالى وحده لا شريك له: ﴿**إلى ربك منتهاها**﴾ ولعلنا أدركنا لفظة الرب التي لحق بها ضمير المخاطب العائد للنبي ﷺ، في تسليته وتثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام. إنَّ لسان الحال يقول لهؤلاء الكافرين: ما كان ينبغي لكم أن تسألوا فضلاً عن أن تلحوا في السؤال عما لا فائدة تعود من السؤال عنه. إنَّكم لو كنتم مؤمنين باليوم الآخر لما كانت ثمة فائدة من السؤال لمجرد السؤال لأن العبرة بالعمل من أجل ذلك اليوم، فكيف وأنتم تنكرون وجوده وتستهزئون في السؤال عنه!. إن مثل هذا الخطاب ﴿إلى ربك منتهاها﴾ ينزل على قلبه ﷺ برداً وسلاماً، يخففان عنه إنكار المنكرين واستهزاء المستهزئين وتكذيب المكذبين.

لقد كان الأولى بهؤلاء الكافرين وأمثالهم أن يعرفوا أن وظيفة الرسول الكريم ليس في الاجابة عن أسئلة لا فائدة منها، فضلاً عن كون السائلين غير مؤمنين بالقضايا التي يسألون في حقها، بل ليس في الاجابة عن سؤال يتعلق بوقت الساعة مثلاً يصدر عن المؤمنين بها، لأن الفائدة في العمل من أجلها فقط. ولما كان الذي يحثّ على الإيمان بوجودها والعمل لها هو الإنذار بها وليس تحديد وقتها، لذلك اقتصرت دائرة علمه عليه الصلاة والسلام على هذا المهم فقط وهو الإنذار الذي يؤدي إلى الايمان فالعمل. ولما كان الذين يستفيدون من الانذار بالساعة هم المؤمنون المتقون الذين تمتلىء قلوبهم بخشية الله تعالى، فقد وجهت السورة الكريمة انتباه الرسول الكريم، وهذا من مظاهر التسلية والتثبيت، إلى اليقين الذي ينبغي أن تمتلىء به نفسه بين جنبيه، والعمل في ضوء ذلك، من أنه لا فائدة من انذار هؤلاء الطغاة بالساعة، تماماً

كما لم يفد انذار موسى فرعون الطاغية وملأه . إنّ الإنذار إنما ينفع المتقين الذين يؤمنون بالله تعالى ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبك أيها النبي الكريم رسولاً من الله تعالى . عليك أيها الرسول الكريم أن تبلغ رسالة ربك . هذا هو منتهى الطلب منك . ولله تعالى الأمر من قبل ومن بعد .

أما كفّار مكة الذين يلحون في السؤال عن الساعة دون إيمان بوجودها أصلاً ، فإنهم يوم القيامة لهول المفاجأة ، وصعوبة هذا اليوم في حقهم ، وشدته عليهم ، يحسون في أعماقهم ، لطول ذلك اليوم الصعب عليهم ، أن مكثهم في الحياة الدنيا ، التي جعلوها غاية لهم ووكداً[1] ، واعتبروا نعيمها الزائل غاية ما يصبون إليه ويتمنون ، لتقضيه ، وكأنه حلم من الأحلام ، ومروره ، وكأنه سحاب جهام ، يشبه صدر نهار واحد أو عجزه ، فترة الضحى أو فترة العشية . قال تعالى :﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاّ عشية أو ضحاها﴾ .

ما أقصر هذه العشية أو ضحى هذه العشية . إنها ليست يوماً كاملاً وما أقله . ولا نهاراً كاملاً وما أقصره . إنما هي بمثابة الجزء من ذلك النهار الواحد . ما أتفه هذه الحياة إن لم تتخذ وسيلة للحياة الأخرى الحقيقية . وما أشد غفلة الذي يتخذها غاية وهدفاً . وما أشد خسران الذي يشتري العاجلة بالآجلة . الفانية بالباقية الخالدة . فهل من مدكر ومعتبر ؟﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ وهل من مستفيد من النذر ؟ ﴿إنّما أنت منذر من يخشاها﴾ .

ونحب أن نختم حديثنا عن هذا القسم الأخير من السورة بالإشارة إلى حظه من ظاهرة تلاؤم الأصوات ، شأنه في ذلك شأن كل القرآن الكريم . ونود في هذا الصدد أن نذكر بشيء سابق كذلك . أما الشيء الذي نذكر به ، فهو أن الفاصلة في هذا القسم تتفق مع القسم السادس بالتناظر ، على غرار اتفاق القسم السابع مع الخامس بالتناظر أيضاً . ونود أن نبين بعد ذلك أن هذا القسم الأخير في السورة يتكوّن على غرار القسم الأول من خمس آيات . ثم

---

(١) الوكد بالضم : السعي والجهد .

أخذ العدد ينزل تباعاً في الأقسام الثلاثة التالية على هذا النحو . أربع آيات ، ثلاث آيات ، آيتان . ثم ارتفع العدد وتنوّع . كما نود أن نبيّن بأن بين فواصل آيات القسم توافقاً تاماً فيما يلي ساها ، من «مرساها» راها من «ذكراها» هاها من «منتهاها» شاها من «يخشاها» حاها من «ضحاها» وهو اتفاق ينبىء عما وراءه من تشابه في مجال تلاؤم الأصوات . هذا إلى أن اجتماع ألفين في كل فاصلة يتيح للنفس أن يمتد ما شاء ، وذلك خادم للمعنى ، خاصة إذا أضيف إلى ذلك مجموعة من حروف المد ، كتلك التي في الآية الكريمة الأولى من القسم ، الطويلة نسبياً ﴿يسألونك عن الساعة أيّان مرساها﴾ والتي تهيء النفس بهدوء إيقاعها لاستقبال رنّة الأسى الطويلة للكافرين يوم القيامة ، الذين ردّوا في الحافرة ، فكانت كرتهم ولا شك خاسرة . إن إنكارهم واستهزاءهم قلبا رأساً على عقب ، ندماً وأسى مريرين ، حيث لا ينفع الندم ولا الأسى .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

خاتمة

بعون من الله تعالى وتوفيق ، درسنا في الصفحات السابقة سورة النازعات المكية دراسة متأملة . وثمة مجموعة من القضايا التي أخذت أثناء الدراسة في الاعتبار . وهذه أهمها :

١ ــ روعي السياق والترابط المعنوي بين آيات القسم الواحد ، وبين أقسام السورة الثمانية . ففيما يتصل بآيات القسم الواحد ، تجلّت مراعاة السياق والترابط المعنوي ، في وضوح شديد ، بشأن الآيات الخمس في القسم الأول الذي انتهينا بشأنه إلى كون رأي جمهور العلماء هو الراجح . فقد ذهبوا إلى أن الآيات تتحدث عن الملائكة التي تغرق في نزع أرواح الكافرين ساعة الموت ، وتستل برفق ، أرواح المؤمنين ، وتسبح بين السماء و والأرض ، وتسبق إلى تنفيذ أمر ربها في تدبير ما وكل إليها من أمور . وإن اتفاق العلماء بشأن الآية الخامسة ﴿فالمدبرات أمراً﴾ كان المنطلق لنا في تأملاتنا . وقد كان لهذه الآية المتفق على معناها ، القدرة ، بحكم الترابط المعنوي في القسم ، على حمل تأملاتنا أن تكون متجهة دائماً من الآية اللاحقة إلى السابقة .

وقد بحثنا في هذا القسم ، عن السبب في ابتداء بعض الآيات بالواو وبعضها بالفاء . قال تعالى : ﴿**والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا**﴾ وفي ضوء الحقيقة الماثلة ، من كون بعض معاني الآيات ، كأنه قائم برأسه ، بينما بعضها الآخر

مرتبط بسابقه ومبني عليه ، انتهينا إلى أنه حينما كانت حبات المعنى المترابط جائزة الاستقلال ، كإغراق الملائكة في نزع أرواح الكافرين ساعة الموت . وسلها ، بلين ورفق ، أرواح المؤمنين المتقين ، وسبحها بين السماء والأرض ، في سبيل تنفيذها ما تؤمر به ، جاءت الواو المشعرة بذلك الجواز . وحينما كانت حبات المعنى جائزة الالتحام ، من كون سبق الملائكة لتنفيذ ما تؤمر به ، مبنياً على سباحتها بين السماء والأرض ، وتدبير الأمر مبنياً على السبق ، جاءت الفاء ، المشعرة بذلك الالتحام . والله تعالى أعلم بالمراد .

وفيما يتصل بمراعاة السياق والترابط المعنوي بين الأقسام ، تبيّن أن السورة ، شأنها شأن العديد من السور المكية ، تدور حول محور واحد ، هو قضية البعث بعد الموت ، التي ينبغي على الناس الايمان بها والعمل من أجلها . وأول ما يطالعنا في هذا الصدد ، التجانس بين مطلع السورة الكريمة وبين محورها إذ تبدأ بالقسم بالملائكة التي تنزع بشدة وعنف أرواح الكافرين ، وتستل بلين ورفق أرواح المتقين . وبتأمل الأقسام السبعة الباقية تبين ، أن خمسة منها تشير إلى يوم القيامة ، النفختين معاً أو إحداهما . أما القسمان الباقيان ، وهما الخامس والسادس ، فإنهما يعملان على تهيئة الناس للايمان باليوم الآخر والعمل من أجله . وأول هذين القسمين يتحدث عن جوانب من قصة موسى عليه السلام مع فرعون الذي أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، لتكذيبه موسى عليه السلام وإنكاره البعث . فعلى كفّار مكة أن يأخذوا العظة والعبرة ، وإلّا كان المصير واحداً ، باهلاك الله تعالى لهم ، وفي ذلك تسلية غير مباشرة للرسول الكريم وتثبيت . وثاني القسمين يتحول من فرعون الطاغية ، الذي يعتبر مثالاً للطغيان والجبروت في مجال البشر ، إلى المثال في القوة والشدة في مجال المادة ، إلى السماء والأرض . إن التحول من فرعون إلى السماء ، كأنّه يوحي بأن طغيان فرعون في الأرض ليس عليه من مزيد ، وإن المتأمل للسماوات والأرض ، وخلقهما الذي هو أكبر من خلق الناس ، ينبغي أن

ينتهي إلى ان القادر على الخلق ابتداء ، قادر على الخلق عودة ، بما في ذلك إعادة الحياة إلى الناس بعد الموت ، لأن القادر على الأجل قادر على الجليل . ونقول هذا بلغتنا نحن البشر ، وإلّا فالأعمال كلها سواء في حق الفعال لما يريد ، الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

إن أقسام السورة الباقية تتحدث ــ كما قلنا ــ عن النفختين معاً أو إحداهما . فالقسم الثاني : ﴿**يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة**﴾ يتحدث عن النفختين ، الأولى التي تميت بارادة الله تعالى الخلائق الا من شاء ربك . والثانية التي تحييهم بارادة الله تعالى وبين النفختين أربعون سنة ، كما جاء في الحديث . والقسم الثالث : ﴿**يقولون أئنّا لمردودون في الحافرة . أئذا كنا عظاماً نخرة . قالوا تلك إذن كرة خاسرة**﴾ يتحدث عن إنكار كفار مكة البعث واستهزائهم . والقسم الرابع : ﴿**فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة**﴾ عبارة عن نقلة مفاجئة للكافرين إلى النفخة الثانية ، وبعثهم ونشورهم إثرها . والقسم السابع : ﴿**فإذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكّر الإنسان ما سعى . وبرزت الجحيم لمن يرى . فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى**﴾ ، يتحدث عن يوم القيامة أو النفخة الثانية فما بعدها . إنّ الحديث عن المتقين كاف وشاف وإن كان قليلاً بالقياس لنصيب الطغاة ، لأن محور السورة الكريمة تقرير حقيقة البعث بعد الموت ، بهدف أن يؤمن المنكرون في المقام الأول . وقد صبغت هذه الحقيقة أجواء السورة بالعنف في الأسلوب ، والرهبة في المعاني . والقسم الثامن ، والأخير : ﴿**يسألونك عن الساعة أيان مرساها . فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلّا عشية أو ضحاها**﴾ : يتحدث عن الساعة ، من زاوية إلحاف الكافرين في السؤال عنها . ويوم تقوم الساعة التي ينكرون ، يتبينون ، لهولها ، أن مكثهم في الحياة

الدنيا وإن طال ، ليس أكثر من ساعة من نهار ، عشية أو ضحاها . وهكذا يتبين مظهر من مظاهر وحدة سورة القرآن الكريم الموضوعية ، وطريقته الفريدة في عرضه لكليات المعاني وجزئياتها . وهذا يستدعي منا الحديث عن القضية التالية المتعلقة بها والتي روعيت في الدراسة .

٢ ــ القرآن الكريم ، يتجلى فيه دائماً وأبداً ، القدرة العجيبة المتوازنة ، بين إرضاء العقل بفصوص حكم المعاني وإشباع النفس بجميل تركيب المباني . ولهذا كان في دراستنا المتأملة ميل واضح لإعطاء ظاهرة التلاؤم الصوتي حظها . ويمكن أن نشير في عدة نقاط إلى أهم مظاهر ذلك .

أ ــ بشأن القسم الأول في السورة الكريمة ، لكون المعنى واضحاً ، تعدل الآية الكريمة الأولى ﴿**والنازعات غرقاً**﴾ عن طريقة التعبير التي تقول بها المعاجم : والنازعات إغراقاً ، كما أنها تعدل عن مصدر اسم الفاعل في الآية ﴿**نزعاً**﴾ على الرغم من دور هذا النوع من المصادر في القسم . لقد كان العدول عن المصدر ﴿**نزعاً**﴾ إلى الاسم ﴿**غرقاً**﴾ لأن الغرق في النزع أبلغ من النزع مجرداً ، وبذلك أرضت الآية الكريمة العقل بفص حكمتها . وكان العدول عن المصدر إغراقاً إلى الاسم ﴿**غرقاً**﴾ لأنه من الوجهة الصوتية على وزن ﴿**نزعاً**﴾ الذي كانت النفس تنتظره وتتشوّق إليه . وبذلك أرضت الآية الكريمة النفس بجميل مبناها . ولا يخفى أن مثل هذا العدول جائز في اللغة أصلاً ، وأن المعنى هو الذي اقتضاه . ولا يخفى أن القرآن الكريم كتاب هداية أولاً وأخيراً ، وأن الجمال الفني وسيلة دائمة للهدف الديني الأسمى .

وإذا كان العدول في الآية الأولى عن صيغة إلى أخرى يقتضيها المعنى والمبنى كان مقصوراً على لفظة واحدة ، فإن العدول في الآية الثانية ﴿**والناشطات نشطاً**﴾ كان شاملاً لاسم الفاعل والمصدر معاً . فقد تم العدول بشأنهما من الثلاثي المزيد إلى الثلاثي المجرد .

ب ــ من أهم مظاهر التلاؤم الصوتي في السورة الكريمة ، التشابه

الصوتي الدقيق بين أجزاء الآية الواحدة أو الآيات في القسم والقسم القريب منه بخاصة . والأمثلة كثيرة في هذا المجال .

جـ ــ وأحياناً يكون التشابه الصوتي بين قسمين متباعدين . وذلك على غرار التشابه في مجال الفاصلة بخاصة بين القسمين المتناظرين ، الخامس والسابع وكذلك السادس والثامن .

د ــ وأحياناً يكون التشابه الصوتي في هيئة تقسيم أجزاء الكلام أقساماً متشابهة متساوية . وذلك على غرار تقسيم أجزاء الكلام في القسم السابع إلى تسع وحدات صوتية موزعة بالتساوي بين ثلاث وحدات معنوية . قال تعالى : ﴿**فإذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الإنسان ما سعى . وبرزت الجحيم لمن يرى . فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا.فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى**﴾ .

هـ ــ وأحياناً يكون التلاؤم الصوتي قوة لقراءة . فقد جاءت الفاصلة في الآية الحادية عشرة مخالفة لكل ما سبقها من فواصل . قال تعالى : ﴿**أئذا كنا عظاماً نخرة**﴾ إن قراءة الجمهور «نخرة» روعى فيها المعنى بدرجة أكبر . وإنّ القراءة الأخرى «ناخرة» روعى فيها رؤوس الآي بدرجة أكبر . وقد تبيّن أن في الآية الكريمة عجيبة صوتية تضيف قوة جديدة لقراءة الجمهور «نخرة» وتفسير هذه العجيبة أن هذه الآية الحادية عشرة التي تجيء في عجزها لأول مرة في السورة هذه الصيغة الصوتية «نخرة» يجيء في صدرها لأول مرة أيضاً صيغة صوتية موافقة للعجز ! قال تعالى : ﴿**أئذا كنا عظاماً نخرة**﴾ . إن القول «ائذا» موافق تماماً من الوجهة الصوتية للقول «نخرة» وكأن انفراد الصدر بمجيئه في هذه الصيغة الصوتية يشي بانفراد الفاصلة في الآية بصيغتها الصوتية ويعتبر هذا التوافق قوة اضافية لقراءة الجمهور كما قلنا . والله تعالى أعلم .

و ــ وأحياناً يكون التوافق بين المعنى والمبنى في هيئة اشتمال الآية على فكرتين بين مبنى الفكرتين ومعناهما توافق تام لإحداث أجمل الآثار في العقل

والنفس معاً . وتفسير ذلك أن ثواني الأفكار أو الأعجاز من هذه الآيات مثلاً ﴿**فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى**﴾ . تدل على طبيعة العمل القابل لأن يمتد به صاحبه زمنياً ، تماماً كما يمتد الصوت أثناء نطق الأفعال المعتلة بسبب اشتمال آخرها على الألف الواقعة فاصلة .

ز ــ ومن أهم ما راعنا في مجال التوافق بين المعنى والمبنى ، بين إرضاء العقل وإشباع النفس ، قدرة لفظة الطامة في حق يوم القيامة الذي يطم ويعلو ما سواه من الدواهي ، على إرضاء النفس صوتياً بحيث إن هذه اللفظة ، هي ولفظة الحاقة مثلاً والصاخة ، كانت كل منها قادرة على كسر القاعدة الصوتية التي لا زال يرددها علماء موسيقى الكلام من أن المقطع الصوتي الطويل ، الذي يتكون من حركة فسكونين ، لا يمكن أن يجيء إلّا في نهاية كلام موسيقي يسكت عنده . إن لفظة الطامة مثلاً ، في قوله تعالى ﴿**فإذا جاءت الطامة الكبرى**﴾ تتضمن هذا المقطع الطويل وهو عبارة عن حركة فسكونين ويقابل الطاء الثانية المتحركة والألف الممدودة والميم الساكنة . إن مجيء مقطع صوتي طويل داخل كلام نثريّ يعتبر عجيبة من العجائب تحمل علماء موسيقى الكلام على إدخال تعديل على القول المعتاد من أن المقطع الطويل لا يجيء إلّا في نهاية كلام يسكت عنده . ونحن في غنى عن القول : إن المعنى هو الذي كسر هذه القاعدة في الآية الكريمة . إن الصوت ينبغي أن يمتد في حق الألف الممدودة من لفظة «الطامة» وأن ينزل انقضاضاً على الميم المشددة . أما وقد عرفنا أن الطامة تعني الداهية التي تطغى على كل الدواهي فمعنى هذا أن التعاون الكامل بين المعنى والمبنى واضح كل الوضوح .

٣ ــ روعيت أثناء الدراسة طبيعة اللغة العربية الاشتقاقية ، التي لها القدرة على توجيه اللفظة معنوياً في رحلتها التاريخية وقد تجلّى ذلك بوضوح شديد في وقفتنا المتأنية عند لفظة الحافرة أثناء دراسة الآية الكريمة عن كفّار مكة قال تعالى : ﴿**يقولون أئنّا لمردودون في الحافرة**﴾ . لقد تتبعنا الخطوات التي

مرت بها هذه اللفظة حتى أصبحت تدل في الآية الكريمة على العودة إلى الحياة الأولى . إن هذه اللفظة «الحافرة» وكذلك «الحافر» مأخوذتان أساساً من المثل : النقد عند الحافرة والحافر . ومعنى المثل أنك إذا اشتريت فرساً لن تبرح حتى تدفع الثمن نقداً . تلك عادة العرب في التعامل مع الفرس لحبهم لها واعتزازهم بها . ثم اتسع هذا المثل فصار يطلق على كل أولية ، وليس على بيع الفرس فقط . ثم استعمل ثلثا المثل ثم استعملت لفظة الحافرة وكذلك الحافر دليلاً على هذه الأولية ومن ذلك رداً على السائل عن التوبة النصوح ، قوله ﷺ : «هو الندم على الذنب حين يفرط منك وتستغفر الله بندامتك عند الحافر ، لا تعود إليه أبداً ، ومن الحديث : إن هذا الأمر لا يترك على حاله حتى يردّ على حافرته أي على أوّل تأسيسه .

إن مثل هذه العلاقة المتينة بين لفظة الحافرة في الآية الكريمة وبين حب العرب للفرس واعتزازهم بها حيث إن لفظة «الحافرة» اقتطعت من المثل الذي يدل على ذلك الحب والاعزاز[1] يحملنا على القول : إن دراسة حياة العرب قبل الإسلام جانب مهم في محاولة فهم كتاب الله تعالى العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) انظر هنا مجمع الأمثال للميداني، المثل رقم ٤٢١٢ تحقيق محيي الدين عبد الحميد الطبعة الثانية بالقاهرة ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ م.

فهرست بأهم المصادر

ابن كثير: (إسماعيل بن كثير القرشي) الدمشقي، التفسير، بيروت ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م.

ابن منظور: (جمال الدين محمد بن مكرم) لسان العرب. بيروت.

أبو حيان: (محمد بن يوسف بن علي بن يوسف) البحر المحيط، بيروت أوفست.

الجلالين: (جلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطي) تفسير الجلالين.

الزمخشري: (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر) الكشاف، حلبي، ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م.

الطبري: (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري) التفسير الطبعة الأولى، بولاق، ١٣٢٩ هـ.

القرطبي: (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري) التفسير. كتاب الشعب بمصر.

قطب: (سيد) في ظلال القرآن. الطبعة المشروعة الثانية، ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥ م دار الشروق.

مسلم: صحيح مسلم. شرح الإمام النووي. مصر ١٣٤٩.

النيسابوري: (الحسن بن محمد بن حسين) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان. مطبوع بهامش تفسير الطبري. بولاق ١٣٢٩ هـ.

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
بين يدي السورة	٧
القسم الأول	
الدراسة المتأملة	١٣
القسم الثاني	
نفخة راجفة وأخرى رادفة	٢٣
القسم الثالث إنكار للبعث	٣١
القسم الرابع زجرة واحدة	٤٥
القسم الخامس موسى عليه السلام وفرعون	٥١
القسم السادس السماء أشد خلقاً	٦٩
القسم السابع جهنم مأوى الطاغين والجنة مأوى الطائعين	٨٥
القسم الثامن يسألونك عن الساعة	٩٣
خاتمة	١٠١
فهرست بأهم المصادر	١٠٩
فكرة عن تأملات في سورة النازعات	١١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

فكرة عن تأملات في سورة النّازعات

هذه السّورة المكّيّة تُعْنى كسائر المكّيّ من القرآن بأسس العقيدة، ومن هنا كان الحديث عن البعث مستفيضاً في أكثر أقسام السّورة الثّمانية. وهذه الدّراسة اهتمّت بمظاهر إعجازها بيانيّاً وصوتيّاً، ومن مظاهر الإعجاز البيانيّ محاولة الكشف عن الحكمة من الاستعمال في آيات القسم الواحد واو العطف تارةً وفاءه تارةً أخرى، وتبيين استعمال القرآن الكريم اللّفظة الواحدة استعمالاً عجيباً على غرار لفظة الحافرة من القول على لسان الكافرين: ﴿أئنّا لمردودون في الحافرة﴾ ممّا دعا إلى تتبّع رحلة هذه اللفظة خلال عصور اللّغة العربية السّحيقة، هذا إلى اشتمال كلّ آيةٍ في أحد الأقسام على معنيين اثنين يبنى ثانيهما على أوّلهما، مع طواعية المعنى الثّاني للاستمرار الّذي تعضده الفاصلة الممتدّة صوتيّاً. ومن مظاهر الإعجاز القرآني الصّوتيّ - إضافةً إلى الفواصل - التّشابه الصّوتيّ بين أجزاء الآيات وأجزاء الآية الواحدة، وبين بعض الأقسام ولو تباعدت، والتّحوّل الجديد في صدر الآية صوتيّاً تمهيداً لفاصلةٍ جديدة مشابهةٍ صوتيّاً للصّدر بحيث يكون التّحوّل الجديد قوةً إضافيةً لقراءةٍ متواترة، هذا إلى كون التّلاؤم الصّوتيّ في القرآن قد كسر القاعدة الّتي يردّدها علماء موسيقى الكلام من كون المقطع الطويل لا يجيء إلّا في نهاية الكلام فيأتي هذا المقطع في أثناء الكلام وذلك في لفظة «الطّامّة» كي يتحقّق التّعاون التّام بين المعنى والمبنى.